القسم الرابع

المنهج وطرائق البحث

obeikandl.com

obeikandl.com

المبحث الأول

المنهج المستخدم في الأنثروبولوجيا

إن التقارب الشديد بين موضوعات العلوم الاجتماعية يصاحبه تشابه في المنهج، فإذا قلنا: إن موضوع الأنثروبولوجيا الاجتماعية هو البناء الاجتماعي، نلاحظ أن موضوع علم الاجتماع هو المجتمع والسلوك الاجتماعي وموضوع علم الاقتصاد هو الطرق التي يستخدمها الإنسان ليكسب عيشه، أما علم السياسية، فيتخذ من «ظاهرة السلطة» موضوعاً لدراسته، ولا شك أن التداخل بين تلك الموضوعات واضح جداً، ويتضح بصورة قوية عند القيام بالدراسات الميدانية أي أثناء ملاحظة الواقع الاجتماعي، ويمكن القول إن التمييز بين تلك العلوم يقوم على أساس الاهتمام بموضوعات خاصة تدخل في نطاق الموضوع العام للعلوم الاجتماعية ألا وهو الحياة الاجتماعية.

ولا يقتصر التقارب بين العلوم الاجتماعية على تداخل موضوعاتها وإنما أيضاً تشابه وتداخل مناهجها وطرق البحث فيها إذ تشترك كل العلوم الاجتماعية في تطبيق المنهج العلمي الذي يتلخص في:

* دراسة الظاهرة الاجتماعية دراسة موضوعية بحيث تعبر عن حقيقة ما هو كائن بدون تدخل الميول والمصالح الشخصية.

* دراسة الظاهرة الاجتماعية دراسة دقيقة، وكلما استطعنا ترجمة تلك الدقة إلى رموز كمية سواء أكانت رموز الحساب أم الجبر والهندسة حققنا الدقة المطلوبة في المنهج العلمي.

* دراسة الظاهرة الاجتماعية الموصول في النهاية إلى القانون الذي تخضع له الظاهرة. ويقصد بالقانون هنا: العلاقات الضرورية التي تربط بين طبائع الأشياء، ويترتب على ذلك إمكانية التنبؤ العلمي عن طريق تحديد شروط حدوث الظاهرة في المستقبل.

ولكن رغم هذا التشابه في مناهج العلوم الاجتماعية يستخدم كل منها طرق بحث تتفق مع طبيعة الظواهر الاجتماعية التي يتخصص في دراستها، وهكذا نلاحظ أنه بينما تتفق العلوم الاجتماعية في الموضوع وهو الحياة الاجتماعية فإنها أيضاً تتفق في المنهج المستخدم في دراسة ذلك الموضوع أي المنهج العلمي. . ولكن هذا الاتفاق يتحول إلى اختلافات عند الانتقال من المفهوم العام للموضوع المفهوم العام للمنهج إلى المفاهيم التخصصية أو الفرعية، فنجد أن العلوم الاجتماعية تختلف في الموضوعات الفرعية التي يتخصص فيها كل علم اجتماعي، وكذلك تختلف في طرق البحث التي يستخدمها كل علم، ولكن يجب ملاحظة أن هذا الاختلاف ليس معناه الفصل أو العزل بين الموضوعات التخصصية وطرق البحث الخاصة بكل علم اجتماعي، وإنما هو اختلاف يسمح بالتعاون والتكرار والتداخل.

تتعرض العلوم الاجتماعية لبعض المشاكل فيما يختص بتطبيق المنهج العلمي، وترتب على تلك المشاكل قلة عدد القوانين الاجتماعية التي توصلت إليها بالنسبة للعدد الهائل من القوانين التي وصلت إليها العلوم الطبيعية، وترتب عليها كذلك عدم وصول دقة القوانين الاجتماعية إلى دقة قوانين العلوم الطبيعية. وحاول المفكرون تفسير هذا القصور من جانب

العلوم الاجتماعية، فأرجعه بعضهم إلى حداثة العلوم الاجتماعية إذا قورنت بعمر الطبيعة. وأعتقد أن هذا التفسير يحدد أحد جوانب المشكلة ولا يحدد أسباب تأخير مولد العلوم الاجتماعية عن العلوم الطبيعية وأسباب طول الفترة التي تجتازها العلوم الاجتماعية للوصول إلى مرحلة النضج واستكمال مقدماتها العلمية، بينما لم تحتج العلوم الطبيعية (مثل الكيمياء أو الطبيعة أو علم الحياة أو علم وظائف الأعضاء) لمثل تلك الفترة الطويلة.

ويفسر بعضهم هذا القصور على أساس أن الظاهرة الاجتماعية أكثر تعقيداً من الظاهرة الطبيعية. وأعتقد أن هذا التفسير قد تعارضه بعض الاعتبارت إذ يرجع التعقيد في معظم الأمور إلى عدم فهم بعض الظواهر، وفيما يتعلق بالعلوم الطبيعية؛ نجد الكثير من الظواهر غير معروفة إلى اليوم، فعالم الفلك لا يزال يحاول أن يكتشف المجهول في نظام الأفلاك والفضاء اللانهائي، وكذلك الحال بالنسبة لباقي العلوم الطبيعية، والدليل على ذلك اكتشاف قوانين جديدة كل عام، وعالم المجهول أمام العلوم عامة هو عالم لا نهائي (أي دائماً سيجد العالم موضوعات معقدة تحتاج إلى الفهم والكشف عن قوانينها) بل إنني أعتقد أن الظاهرة الاجتماعية عامة هي أقرب للإنسان من الظواهر الطبيعية؛ لأنه يعيش من خلالها ويعرفها عن طريق الخبرة الذاتية.

وإذا حاولت الإجابة عن السؤال السابق، وهو: ما سبب قصور العلوم الاجتماعية عن العلوم الطبيعية؟ أجد نفسي متجهاً إلى الباحث الاجتماعي

obeikandi.com

ذاته وإلى الظاهرة الاجتماعية أو عمر العلوم الاجتماعية، فلا شك أن الظاهرة الاجتماعية هي جزء من الطبيعة؛ ولذلك يمكن دراستها بالمنهج العلمي ولا يمكن تصور أن الحياة الاجتماعية لا تسير وفق قوانين؛ لأن الطبيعة ككل تسير حسب قوانين يترتب عليها ذلك النظام الملحوظ في الجوانب كلها حتى في الجانب المتعلق بالحياة الاجتماعية، إن المشكلة تتمثل في أن العالم الاجتماعي يجد نفسه مدفوعاً لا شعورياً أو شعورياً إلى التحيز لسلالة معينة أو للنظام الاجتماعي الذي يطبقه أو للقيم التي يعتنقها، هذا بالإضافة إلى الإمكانيات الضخمة المكرسة لخدمة العلوم الطبعية، أما العلوم الاجتماعية فإن إمكانياتها محدودة حتى في الدول المتقدمة، وفي الدول النامية تفرض معركة التنمية الاقتصادية تركيز الاهتمام على العلوم الطبيعية فقط، أما الدول المتخلفة فلا تشعر بأهمية العلوم الاجتماعية، ولا يمنع هذا أن بعض العلوم الاجتماعية تتخصص في الدول المتخلفة، ولكن المتخصصين في تلك العلوم ينتمون (في الغالب) إلى دول متقدمة وأحياناً إلى دول نامية.

ولا أدل على إمكانية تطبيق المنهج العلمي على الظواهر الاجتماعية إلاّ نجاح بعض العلوم الاجتماعية في الوصول إلى قوانين اجتماعية قريبة جداً في دقتها من القوانين الطبيعية.

إذاً المنهج هو المسلك (الطريق) الذي يسير فيه الباحث للوصول إلى المعرفة بواسطة مجموعة من القواعد والعمليات العلمية المنطقية التي يتبعها العقل والحس لأجل الوصول إلى نتيجة محددة، وعندما يعتمد الباحث

كل ما سبق نقول إنه استخدم المنهج العلمي، ورأينا من أجل أن تتحقق هذه العملية لابد من استخدام الموضوعية والدقة العلمية لنصل إلى القانون القابل إلى للتعميم.

وبناء على ذلك فمنهج العلوم واحد وهو المنهج العلمي، غير أن هناك أدوات منهجية يستعملها الباحث في المنهج العلمي هي ما نسميه طرائق البحث المنهجية مثل: الطريقة التاريخية، والتجريبية، والمقارنة، وتحليل المضمون، . . . إلخ.

وهناك أدوات قياسية تستخدم أيضاً مثل: الاستمارة، والملاحظة ومجموعات النقاش البؤرية وغير ذلك. وكل ذلك لتحقيق ما يسمى بالمنهج العلمي؛ لأنه يستخدم جملة القواعد والعمليات المنطقية للوصول إلى نتائج قابلة للتعميم، ولأجل تحقيق ما يسمى بالدراسة العلمية للمجتمع.

obeikandl.com